الكتاب السادس والعشرون

التفكر من الشاهد إلى المشهود

مالك بدري

سلسلة أبحاث علمية (٣) ط ٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م. ١٠٦ صفحة.

تحليل وعرض د. عبد الناصر العساسي

السيرة الذاتية للمؤلف:

ولد البروفيسور مالك بابكر بالسودان في الأول من يناير عام ١٩٣٢م، ينحدر بدري من أسرة سودانية عريقة؛ فقد أسس والده الشيخ بابكر بدري أول مدرسة حديثة للبنات في ١٩٠٧، وقد حملت هذه المهمة آل بدري على الارتباط بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية قبل الاستقلال في ١٩٥٦، ثم استمر ارتباط هذه الأسرة ثقافيًا وفكريًا بالمؤسسات الغربية، إلا أن مالك بدري قد أفلت من هذه الارتباطات الفكري والثقافية واختار في وقت مبكر من عمره الالتحاق بالحركة الإسلامية الحديثة بعد إيمانه بالفكر الإسلامي الجديد عند مدرسة الإخوان المسلمين، وقد دفع انتماء مالك بدري المبكر للجماعة أن يطلق بعض الإخوان عليه مازحًا وصف «مؤمن آل بدري». ونال بكالوريوس الآداب بدرجة ممتاز من الجامعة الأمريكية في بيروت (لبنان) عام ١٩٥٦م، وقد مثلت فترة بيروت لحظة حاسمة لبدري؛ فقد تعرف عن طريق الطالب السوداني آنذاك «علي شبيكة» بالإخوان المسلمين في الجامعة الأمريكية، وهذه المجموعة تولت مسئولية العمل الإسلامي بوجه من الوجوه في بلدانها، ومنهم الدكتور إسحاق الفرحان الداعية الإسلامي المعروف الذي تولى رئاسة الجامعة الأردنية، وكان وزيرًا للتربية والأوقاف في الأردن.

عد البروفيسور مالك بدري من ألمع الشخصيات الإخوانية بالسودان، وقد

رشح لقيادة الجماعة أكثر من مرة في تاريخه الدعوي.. وأصبح بدري بثقافته العالية وروحانيته الفياضة مدرسة مميزة في التربية داخل جماعة الإخوان المسلمين السودانية، لم يثنه عن ذلك الاعتقال في فترة الرئيس جعفر النميري، ولا خلافه مع الدكتور حسن الترابي. وقد دفعت هيمنة حسن الترابي الكثيفة -بتوجهاته الفكرية والحركية على الجماعة بحلول العام ١٩٦٩م- بدري للاستقالة من المكتب التنفيذي بل ومن الجماعة كلها، وقد أنشأ بدري مع آخرين حركة صغيرة للإخوان ورشح الدكتور الحبر يوسف نور الدائم أميرًا عليها. بعد عشرات السنين من تأسيس هذه الجماعة عاد بدري مرة أخرى إلى أحضان التصوف.

أما تطوره العلمي فقد حصل مالك بدري على الماجستير في جامعة ليستر عام١٩٥٨م وكذا الدكتوراه في عام١٩٦١م بإنجلترا، إضافة إلى شهادة التخصص في علم النفس السريري عام ١٩٦٧م، وقد قدم المؤلف بحوثًا علمية بعد نيله درجة الدكتوراه وذلك بشعبة الأمراض النفسية والعصبية بمستشفى ميدلسيكس بلندن، وله خبرة طويلة في مجال تدريس علم النفس والبحوث والعلاج النفسي، وقد شغل عدة مناصب وهي:

أستاذ مساعد في الجامعة الأمريكية في بيروت من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٦٤م - أستاذ زائر ورئيس لقسم علم النفس بالجامعة الأردنية عام١٩٦٥ م -أستاذ مشارك في قسم علم النفس والتربية ومدير لوحدة التوجيه والإرشاد النفسي في جامعة أم درمان الإسلامية من عام ١٩٦٧إلى١٩٧١ م- أستاذ في قسم علم النفس ومدير العيادة النفسية في جامعة الرياض(الملك سعود حاليا) من عام١٩٧١ إلى١٩٧٣ م ومرة أخرى من عام١٩٧٤ إلى ١٩٧٧م -أخصائي التربية وعلم النفس في منظمة اليونسكو في مؤسسة التربية العملية في بحر دار بأثيوبيا من عام ١٩٧٣ إلى١٩٧٤م- عميد كلية التربية في جامعة الخرطوم ورئيس قسم علم النفس

التطبيقي من عام ١٩٧٧إلى ١٩٨٠م -أستاذ في قسم علم النفس وأخصائي العلاج النفسي في العيادة الطبية لجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض من عام١٩٨١ إلى١٩٨٢م ومن عام١٩٨٤إلى ١٩٨٥م- عميد كلية التربية ومدير جامعة جوبا بالإنابة من عام ١٩٨٣إلى١٩٨٤م- أستاذ علم النفس وعلم النفس الإسلامي في جامعة الخرطوم من ١٩٨٥ إلى١٩٩٢م- أستاذ في قسم علم النفس في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا من١٩٩٢إلى١٩٩٤م- أستاذ علم النفس والحضارة الإسلامية في المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية التابع للجامعة الإسلامية في ماليزيا من١٩٩٤إلى٢٠٠٣م- عميد المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية التابع للجامعة الإسلامية في ماليزيا من٢٠٠٣إلى ٢٠٠٤م- أستاذ علم النفس وعلم النفس الإسلامي وكبير مستشاري مركز علم النفس التطبيقي في الجامعة الإسلامية في ماليزيا من٢٠٠٤م حتى الآن. - مؤسس الجمعية النفسية السودانية رئيسها الفخري ومؤسس الرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين وانتخب أول رئيس لها عام ١٩٩٧.

وقد نشر الدكتور بدري عددا من الكتب والبحوث باللغتين العربية والإنجليزية ومن ضمن ما نشر بالإنجليزية «الإسلام وعلم النفس التحليلي» و«الإسلام وإدمان الكحول» وأهم مؤلفاته «نكبة الإيدز».

المؤلف وعصره:

عاش مالك بدري أهم فترة في تاريخ الأمة الإسلامية، حيث عاصر ولادة حركات التحرر في العالم الإسلامي والتي بدأت في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، ثم عاش فترة التحولات الكبرى في تاريخ الأمة، حيث أخذت التحولات أشكالًا عدة؛ منها ما تبنى الفكر الاشتراكي ومنها ما تبنى الفكر الليبرالي ولم تتبن أي محاولة الفكر الإسلامي باعتباره المنقذ الوحيد النابع من جذور الأمة،

ومن هنا فقد تأثر مالك بدري بفكر الإخوان المسلمين الذي كان موجودًا بالجامعة الأمريكية ببيروت استشعارًا منه بأنه هو الحل الوحيد لأزمة الأمة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت الفكرة الإسلامية هي مدار حياته العلمية، ومع تعرضه للفكر الغربي بتوجهاته العلمانية، إلا أنه كان يدرك تمامًا كيف يستفيد مما تقدمه التوجهات العلمانية ويصبغه بصبغة إسلامية، ومن هنا استفاد بتخصصه الدقيق في علم النفس الحديث وعمل على طرح العديد من الحلول للمشاكل التي يعاني منها الغرب وبين كيف يمكن للتوجه الإسلامي أن يخرج الإنسانية من أزماتها لو تبنت الفكرة الإسلامية وعادت إلى الفطرة السليمة.

لقد ظهر تأثير المفكر مالك بدري الإسلامي في قيامه بإنشاء الرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين التي أخذت الصبغة العالمية المحايدة غير المتأثرة بأي فكرة قومية، لا يوجهها سوى الفكرة الإسلامية، إيمانًا منه بأن دمج المؤسسات ذات الصبغة الإسلامية في المؤسسات العلمانية ينتج عنه ذوبان الفكرة الإسلامية، وذلك لأن الفكرة العلمانية تنطلق من مقولات معادية للإسلام، وبالتالي فإن الحل الوحيد؛ من وجهة نظره؛ تمثل في إنشاء مؤسسات علمية ذات طابع إسلامي تعلن عن نفسها باعتبارها البديل للمؤسسات العلمانية، وأن هذا البديل هو أنسب البدائل، طالما أن البدائل الاقتصادية والسياسية والعسكرية قد تمت محاصرتها وتسيدت العلمانية عليها، وأن العمل ضمن هذه البدائل يعد إهدارًا للوقت والجهد والمال، ومن هنا كانت إسهاماته الفكرية تعتبر من أول اللبنات التي مهدت الطريق لفكر مدرسة إسلامية المعرفة، والذي ظل متبنيه منذ اللحظات البارزة في حياته العلمية، ؛ ومازال مستمرًا نصيرًا قويًا للفكرة مضيفًا إليها معدلًا فيها ساعيًا لتقويتها لكي تصمد في وجه الهجمات العلمانية الشرسة التي تستهدف اقتلاعها.

لم يكتف مالك بدري بحركته العلمية العالمية، ولكنه أراد أن يفعل هذه

الأفكار العلمية إلى واقع منذ بداياته، إيمانًا منه بأن النظرة والممارسة هما صنوان لا يجب التفريق بينهما، حيث تتعدل الفكرة بالممارسة وتتطور الممارسة من خلال الفكرة، ومن هنا اهتم بشغل منصب هام في جماعة الإخوان المسلمين بالسودان، وهو في ذلك يختلف عن العديد من المفكرين الإسلاميين الذين يرون أن الفكر لا يجب أن يتقيد بالممارسة لأن هذه العلاقة قد تكون بمثابة قيود على حرية فكرهم، ولكن المفكر مالك بدري يرى أن الفكرة المجردة التي لا تجد لها تطبيقًا في الواقع سينظر إليها باعتبارها نوعًا من المثاليات وأن الفترة النبوية كانت تدمج الوحي بالواقع لبيان حتمية ربط الفكرة بالواقع.

وأخيرًا، يعد مالك بدري من الرعيل الأول الذي نذر حياته لنشر الفكرة الإسلامية الصحيحة غير المتأثرة بالتشوهات التي شابتها طوال فترة التاريخ الإسلامي وغير مقتبسٍ للمبادئ العلمانية المسيطرة على معظم المؤسسات العلمية المعاصرة.

المعالجة التحليلية للكتاب:

رغم أن الكتاب يعتبر صغير الحجم مقارنة بغيره من الكتب، إلا أنه قد ضم مقدمة وعددًا من الأفكار الهامة وهي التفكر من وجهة نظر علم النفس الحديث، وما بين التفكير والتفكر، ومابين التفكر والتأمل الارتقائي، وبعض الأساليب القرآنية في الحض على التفكر، والتفكر عبادة حرة طليقة، والتفكير في الغيبيات وحدوده، والفروق الفردية في درجات التفكر، التفكير كان هو محور دراسات علم النفس إلى أن ظهرت المدرسة السلوكية التي أغفلته واهتمت بمظاهره الخارجية والتي هي عبارة عن مثيرات واستجابات يمكن إخضاعها للتجربة، وكذلك تم اختزال سلوك الإنسان كفعل منعكس شرطي، وبهذا أهمل التفاعل بين العوامل النفسية والجسمية والاجتماعية والحضارية والروحية لإنتاج السلوك الإنساني وأهمل بوجه خاص

الجانب الروحي باعتباره منبثقًا عن الدين، وبالتالي تم تفريغ الإنسان من محتواه العقلي والفكري والروحي والشعوري. ونتيجة لفشل هذه المدرسة، بدأ الاهتمام بالعمليات المعرفية والتفكير واعتبر الدماغ هو أداة التفكير، وظهرت مشكلة صلة العقل بالجسم، ثم تطورت النظرة التي اعتبرت اللغة المحرك الدافع للتفكير وهى التي تحدد وسائل التفكير، وهنا كانت الحكمة من اختيار اللغة العربية أداة لنقل وحى الله وقرآنه، وبالنسبة لعلم النفس المعرفي، فإنه يتناول ما يفكر فيه الإنسان، وبالتالي فيما يشكل تصوراته وعقائده وقيمه ويوجه تصرفاته الخارجية.

أما الفكرة الثانية وهي تحت عنوان «ما بين التفكير والتفكر» فقد ذكر فيها أن العلماء المسلمين أوضحوا دور التفكير في توجيه السلوك، فتحدثوا عن الخواطر والأفكار التي تتحول إلى شهوة ودافع واللذين يتحولان إلى عادة، وقالوا إن تغيير الخواطر أسهل من تغيير الأفكار، وتغيير الأفكار أسهل من تغيير الدوافع، وتغيير الدوافع أسهل من اقتلاع العادات، وبالتالي فإصلاح الخواطر أسهل من إصلاح العادات، ومن هنا كان صلاح القلوب هو عله الصلاح والإحسان، ولذلك فإن علاج أمراض القلوب هو الأهم، ومن آليات علاج القلوب العلاج بالضد كممارسة رياضة النفس والتي تبدأ بكثرة الذكر والتأمل في آلاء الله، وبالتالي فإن ذلك يحل محل الخواطر السيئة والوساوس الشيطانية في النفس، ولقد ألمح الإمام الغزالي إلى ذلك حينما قال «إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير القلب تغيرت أعمال الجوارح» فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر، فالتفكر يستفيد من كل الأساليب المعرفية المستخدمة في التفكير، لكن يختلف عن التفكير في أنه يعبر بتصوراته ومفاهيمه من الدنيا إلى الآخرة ومن المخلوقات إلى خالقها جل وعلا، وهذا هو الفارق بين التفكير والتفكر. ويؤكد الإمام الغزالي على أن التفكر هو إحضار معرفتين في القلب يستثير منهما معرفة ثالثة، فالتفكر يبدأ بالمعارف عن طريق الحس

والتخير ثم مرحلة التفكر والأحاسيس ثم ينتقل إلى الإحساس بالخالق المبدع ثم ينتقل إلى مرحلة الشهود والبصيرة، فهذه المراحل هي الانتقال من المشاهدة المحسوسة إلى المرحلة الرابعة وهى الشهود والبصيرة.

أما الفكرة الثالثة والتي هي تحت عنوان «ما بين التفكر والتأمل الارتقائي» فقد ذكر فيها أن الحكم التي تقف وراء تطبيق شريعة الإسلام لا حصر لها، فكلما تقدم العلم وقف على كثير منها فيما يتعلق بالدنيا؛ ناهيك عن تلك المتعة المتعلقة بالآخرة، فالعلاقة اليقينية بين العوامل النفسية والأعراض الجسمية ظهرت في كثير من الدراسات التي أثبتت العلاقة بين النشاط المعرفي والانفعالي والحالة الجسمية للإنسان، ومن هذا المنطلق ربط الأطباء المعالجون بين المعتقدات الدينية والقدرة الجسمية على الشفاء من مرض ما، وهذا ما يسمى بالتأمل الارتقائي الذي يعتمد على الاسترخاء وتركيز الذهن في موضوع التأمل وترديد معاني بإيقاع متكرر، وهذا الأسلوب العلاجي يتشابه مع التفكر في آيات الله عند المسلمين والتسبيح والصلاة وغيرها من الشعائر الإسلامية، بل إن المسلم يزيد من فوائد هذه الممارسات أضعافًا بسبب صحة عقيدته وبساطتها ونفاذ بصيرته ووضوح رؤيته الدينية.

أما الفكرة الرابعة فقد جاءت تحت عنوان «بعض الأساليب القرآنية في الحض على التفكر» فقد ذكر فيها أن القرآن يستجيش القلوب في جو روحاني فيذكرها بآلاء الله ونعمه، فيكون بالتفكر والعبرة (النحل: ٦٦، ٦٥) وتارة بالتهديد والوعيد لأصحاب القلوب القاسية (سبا: ٩) وتارة في صورة الثناء الودود على أولي الألباب (آل عمران: ١٩١، ١٩٠) وتارة باستجاشة الناحية الجمالية الفطرية (فاطر ٢٧، ٢٨). كل ذلك يتعلق فيما يتعلق بالمخلوقات، كذلك فالقرآن يحض الإنسان على التفكر في نفسه، حيث ذكرت بعض الآيات تفسير خلق الإنسان (المؤمنون: ١٤، ١٢) أما غلاظ القلوب، فإن القرآن يوجه لهم أسئلة استنكارية (يس: ٧٧) وكذلك

يقسم الله في قرآنه بالنفس (القيامة ١ - ٤) و(الشمس ٧ - ١٠).

أما الفكرة الخامسة فقد جاءت تحت عنوان «التفكر عبادة حرة طليقة» وذكر فيها أن القرآن يحض على التفكر المتحرر من قيد الزمان والمكان ابتداء من بداية الخلق (العنكبوت: ٢٠) وكذلك التفكر في الحاضر وتدبر مصائر الأمم السابقة (الروم: ٩) والتدبر في الدنيا والتفكر في الآخرة (البقرة: ٢٢٠، ٢١٩) وكذلك النظر في مخلوقات الله الطبيعية (البقرة: ١٦٤).

أما الفكرة السادسة فقد جاءت تحت عنوان «التفكر في الغيبيات وحدوده» وذكر فيها أن هناك قيدًا واحدًا على التفكر في الغيبيات هو التفكر في ذات الله تعالى (الشورى: ١١) (الأنعام: ١٠٣) أما صفات الله تعالى فالمؤمن يدرك جمال وكمال هذه الصفات ليستدل بها على الذات، أما الأمور الغيبية مثل الموت والبرزخ والآخرة فإن التفكير فيها عبادة وذلك انطلاقًا من الشواهد الدنيوية الموجودة، فيمكن ربط الحياة باليقظة والموت بالنوم وهكذا، وكذلك هناك تشابه بين نعيم الدنيا والآخرة (البقرة: ٢٥) وهكذا وصف القرآن هذه الغيبيات وصورها بشكل يجعلها حاضرة ومشاهدة أمامنا (سورة التكوير كاملة)

أما الفكرة السابعة فقد جاءت تحت عنوان «الفروق الفردية في درجات التفكر» وذكر فيها أن هناك ثمانية أبعاد ومتغيرات متداخلة موجودة تتضافر في تكوين الفروق وهى:

ا- عمق الإيمان، فالعمق في التفكر يرتبط بدرجة الإيمان ارتباطًا موجبًا.

ب- القدرة على التركيز الذهني، وهذا مرتبط بخصائص المؤمن وسمات شخصيته وقدرته الفطرية.

ج - الحالة الانفعالية والعقلية، حيث يحتاج التفكر إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية.

د- العوامل البيئية، حيث تؤثر العوامل البيئية بما تمثله من انشغال الفرد في أنشطة الحياة اليومية عاملًا هامًا في درجة التفكر.

هـ- درجة معرفة المؤمن بالشيء الذي يتفكر فيه، فتخصص المؤمن يجعله يختلف عن غيره في تخصص آخر في التفكر.

و- القدوة الصالحة وأثر الصحبة، وهذا واضح في درجة التفكر.

ز- ماهية الأشياء، حيث تؤثر درجة تجريد الأشياء في عمق التفكر.

ح- درجة ألفة المتفكر على الأشياء، فدرجة الألفة تؤثر سلبيًا على درجة التفكر.

أما الفكرة الثامنة فقد جاءت تحت عنوان «التفكر في سنن الكون بين العلم التجريبي والدين» وذكر فيها أن مشكلة العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها تمثل الفرق الأساسي بين العلم التجريبي الإسلامي وغير الإسلامي، فكلاهما يشترك في مرحلة المعارف الحسية ثم التوصل إلى التجريد وتكوين المفاهيم، وهنا يقف العلم التجريدي غير الإسلامي، أما العلم الإسلامي فإنه يربط هذا التجريد وهذه المفاهيم بدقيق صنع الله، وقد عرض القرآن نماذج للقوانين والنواميس التي تنسق الكون (الأنعام: ٩٦، ٩٥) و(يس: ٣٨ - ٤٠) فهذه القوانين والنواميس هي حجر الزاوية التي يقوم عليها المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، ولذلك قدم علماء المسلمين الأسس التي قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة.

إسهامات الكتاب في فكر مدرسة إسلامية:

نظر المؤلف في بداية مؤلفه إلى التفكر نظرة إسلامية أصيله، حيث لم يعتبره نشاطًا عقليًا مشتركًا بين جميع الأجناس، وإنما جعله عبادة، وهو في هذا أدخله ضمن منظومة العبادات الإسلامية التي يعرف المسلمون أنها إما أن تكون فرض عين أو على الأقل فرض كفاية، وقد لمس في هذا وجدان المسلمين الذين ينبغي عليهم المسارعة في

ممارسة عبادة التفكر، وطالما أنها عبادة، فإن هذه العبادة لا تتم بصورة عشوائية ذاتية، وإنما يجب أن يكون لها طقوس مشتركة منزلة من عند الله، وفي هذا حث للعقل المسلم للعمل الجاد لوضع منهج للتفكر منضبط بضوابط الشريعة.

بالنسبة للفكرة الأولى، فقد بين فيها المؤلف التفكر من وجهة نظر المدرسة السلوكية، والتي تنظر إلى التفكر باعتباره استجابة لمثير آني ولا ترتبط بالأبعاد الأخرى للشخصية الإنسانية، وبالتالي فإن السلوكيات الصادرة عن المثير الواحد هي واحدة عند جميع أفراد الجنس البشري، وهذا في ذاته يعد تفسيرًا خاطئًا للسلوك الإنساني الذي يتفاوت في النوع والدرجة من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر، وبالتالي لجأ علم النفس إلى التفسير المعرفي لتحقيق نوع من الربط بين معارف الإنسان وسلوكياته، معتبرًا اللغة أهم مكون معرفي لتحديد هذا السلوك، وقد استفاد المؤلف من هذا التوظيف، حيث فسر أهمية نزول الوحي باللغة العربية وكيف أن اللغة العربية قد لعبت دورًا محوريًا في بناء التصورات والمعتقدات والقيم الإسلامية.

أما الفكرة الثانية فقد بين فيها المؤلف كيف أن علماء المسلمين قد استطاعوا تتبع مراحل تكون السلوك الإنساني من خاطرة وفكرة إلى شهوة ودافع إلى عادة، وأشار إلى أن تغيير الفكرة أو الخاطرة أسهل من تغيير الشهوة أو الدافع وأن تغيير الشهوة أو الدافع أسهل من اقتلاع العادة، ولفت النظر إلى توجيه الإسلام لذلك، حيث رأى الإسلام أن صلاح القلوب هو أصل كل صلاح باعتبار القلوب هي مصدر الفكر والخواطر، ثم انطلق المؤلف من هذه النقطة لتقديم علاجات نفسية لأمراض القلوب استمدها من القرآن والسنة، ثم قدم بعد ذلك تفريقًا بين التفكر الذي يراه أنه ذات جذور إسلامية حيث يعبر بالتصورات من عالم الدنيا إلى خالق الكون سبحانه وتعالى وبين التفكير الذي ينطلق من المحسوس ويدور في فلكه، وهو مرحلة أولية من مراحل التفكر وقاصرة عن البلوغ بالإنسان إلى مرحلة

الشهود والبصيرة، والمؤلف في هذا الطرح يخرج الفكرة الإسلامية عن أي تأثيرات علمانية حديثة حيث ربط البعد العقلي والروحي والوجداني والمعرفي بالبعد الغيبي وبالله سبحانه وتعالى، وهذه نقطة تجعل علم النفس الإسلامي متميزًا في مقولاته ومنطلقاته ومقدماته، وبالتالي في نتائجه، عن علم النفس السائد في المدارس الغربية الذي زاد الوضع النفسي للإنسان الغربي سوءًا، ومن هذه النقطة تكتسب فكرة الإسلامية عالميتها، ولا تظل قاصرة على قومية بعينها أو جنس بعينه.

أما الفكرة الثالثة فقد تعرض فيها لربط علماء النفس المعاصرين بين المعتقدات الدينية والقدرة الجسمية على الشفاء من مرض ما، وقد سموا هذه الظاهرة بالتأمل الارتقائي، وقد ربط المؤلف بين هذه الطريقة العلاجية وبين التفكر عند المسلمين، وبين أن هذه الطريقة أكثر فائدة عند المسلمين بسبب بساطة وصحة عقيدتهم ووضوح الرؤية الدينية عندهم، هذا الربط بين التأمل الارتقائي في المنظور الغربي والتفكر في المنظور الإسلامي أراد المؤلف من ورائه بيان أن تفضيل العلماء لما هو غريب وغير مألوف لدى الناس هو الذي يميزهم عنهم، وهذا ما يسمى بالنظرة المدرسية للعلم، أما الإسلام فلا يرى لمثل هذا التعقيد ضرورة، طالما أن ما يقدمه يمكن أن يحقق مصالح الناس بصرف النظر عن بساطته أو تعقيده، وبالتالي فإن طرح هذا الربط يحث علماء المسلمين في شتى المجالات على السعي لاكتشاف ما تتضمنه مصادر الوحي من آليات وإمكانيات تعمل على حل جميع المشاكل التي تواجه الإنسانية في حياتها الدنيا وتعبر بها إلى بر الأمان في الآخرة.

أما الفكرة الرابعة فقد ذكر فيها بعض الأساليب القرآنية التي تحض على التفكر، وذكر بعض الآيات الدالة على ذلك، وفي هذا دعوة للباحثين في المجال لعمل حصر لجميع الأساليب القرآنية التي تقوم بهذه الوظيفة، وحصر جميع الآيات التي تندرج تحت كل أسلوب، وبيان ما تتمتع به كل مجموعة من آيات تتعلق

بأسلوب معين، وبيان الفرق بين المعالجات القرآنية والمعالجات الغربية التي تستخدم أسلوب التأمل الارتقائي، وكذلك يمثل طرح هذه الفكرة دعوة لأصحاب التخصصات الأخرى لنهج مثل هذا الأسلوب لصياغة علوم إسلامية.

ثم كانت الفكرة الخامسة التي تحدث فيها عن ما يميز التفكر وهو أنه عبادة حرة طليقة، فكونه عبادة يجعله منضبطًا وكونها حرة طليقة يتيح لها تناول عدد لا محدود من القضايا، وحتى تلك المتعلقة بذات الله يمكن التفكر فيها انطلاقًا من إعجاز السمعيات التي لا تستطيع العقول البشرية مجتمعة مجاراتها، وطالما أن العقول تقف عاجزة أمامها؛ رغم كونها معقولة؛ فإن ذلك لزم الالتزام بما جاء فيها منهجًا وفكرًا فيما يتعلق بذات الله، أما انطلاق التفكر في الزمان والمكان والظواهر فلا حدود له، هذا التفكر هو ما يتيح للأمة الإسلامية أن تحقق سبقًا منتظمًا لو التزمت به لأنه ينطلق من الوحي وعلى هديه يسير، وطالما أن الوحي واحد وأنه لا تعارض بين قضاياه، فإن هذا في ذاته كافيًا لتحقيق القفزة الحضارية الإسلامية والتي تحققت في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين.

جاء في الفكرة السادسة حدود التفكر في الغيبيات التي حددها الوحي، ومن هنا فإن المؤلف يريد أن يصيغ معالم للمنهج الإسلامي الذي يمكننا من تناول الظواهر الغيبية، والتي تعتبر مكونًا أساسيًا في الظاهرة الإنسانية، حيث الامتداد الطبيعي للحياة الدنيا هو الحياة في الآخرة، وهنا إشارة إلى البعد النفسي الذي يمثله الإيمان بالآخرة بالنسبة للإنسان المسلم، فما بعد الحياة معروف سلفًا للمسلم وليس مجهولًا كما هو بالنسبة للعلمانيين، وهذا يحقق الأمان النفسي للمسلم الذي قد يعاني من أمراض لا شفاء منها على سبيل المثال، فتطمئن نفسه على أن الصبر على تحمل هذه الأمراض لا ثواب له إلا الجنة والتي جاء ذكر أوصافها في القرآن الكريم بشكل يجعل المسلم كأنه يراها رأي العين.

بالنسبة للفكرة السابعة فقد تناول فيها الفروق الفردية المرتبطة بالتفكر وأرجعها إلى البعد العقائدي أولًا، باعتباره أهم الأبعاد التي تعمق التفكر لدى الأفراد، وصاغ معادلة لذلك، متأثرًا بطريقة التفكير الغربية، ثم ذكر بعد العامل العقائدي العوامل الأخرى التي تنبني عليه وهي العامل الذهني والبيئي والمعرفي والاجتماعي، هذه العوامل مجتمعة هي التي تميز التفكر لدى فرد عنه لدى آخر، وهنا تبرز الصبغة الإسلامية حيث اعتبر أن عمق الإيمان هو الذي يؤدي إلى عمق التفكر وبالتالي يمكننا أن نستنتج أنه كلما كثرت ممارسة التفكر وفقًا للضوابط الإسلامية كلما تعمق الإيمان، فالعلاقة بين الظاهرتين علاقة متضافرة متداخلة لا وجود لإحداها دون الأخرى، هذه المعالجة تجعل علم النفس بجميع فروعه يندرج تحت المعارف الإسلامية، وليس كما هو سائد الآن لدى العديد من علماء النفس المعاصرين الذين يخضعون الظاهرة الإسلامية للدراسة النفسية، وبالتالي فهم يستخدمون المعايير الوضعية لقياس ما هو مطلق، ويعتبرون الإسلام جزءًا من الظاهرة النفسية.

انتقل في الفكرة الثامنة إلى مناقشة نقاط التلاقي ونقطة الافتراق بين العلم التجريبي والدين عند التفكر في السنن الكونية، فبين أنهما ينطلقان من مرحلة المعارف الحسية ثم التوصل إلى التجريد وتكوين المفاهيم، وهنا يقف العلم التجريدي بينما يستمر العلم الإسلامي في ربط هذه المفاهيم بقدرة الله، هذا التجاوز هو الذي يمكن الفكر الإنساني من إيجاد إجابات نهائية للأسئلة الكبرى التي مازال العقل البشري الوضعي لا يجد لها إجابات، وذلك يرجع إلى عدم اعترافه بأن نقطة البداية التي ينطلق منها هي نقطة خاطئة، وذلك لقولها أن الظواهر التي لا يدركها الإنسان ليست موجودة، وبالتالي فإن ما يتوصل إليه يظل غير كاف ويزيد الأسئلة الكلية غموضًا، أما التجاوز الإسلامي فهو ينطلق من مسلمة أن البشر عاجزون

عن إدراك كل شيء، وبالتالي عليهم الاعتراف بهذا العجز وتسليم الوقوف على إجابات الأسئلة الكبرى للسنن الإلهية والتي تمكنهم من تفسير ما يقومون بدراسته وتحدد لهم آليات الاستفادة من هذه الظواهر الكونية.

الخاتمة:

يمثل هذا الكتاب لبنة أساسية في بناء معرفة نفسية ذات مقدمات ومنطلقات إسلامية يمكن للكثيرين الانطلاق منها بهدف صياغة نظرية إسلامية كاملة تتوافق مع العصر الراهن الذي تعيشه الأمة الآن.

*****

obeikan.com